هل يعتبر الأمير عبد القادر مجددا فلسفيا وصوفيا؟

عبد الوهاب بلغراس،
باحث دائم بالمركز الوطني
للبحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، وهران.

انطلاقا من تتبعنا للمسار التاريخي للأمير عبد القادر الجزائري، منذ النشأة إلى آخر مرحلة، وهي مرحلة استقراره بالشام، يمكننا أن نستنتج بعض خصائص التأمل الفلسفي والصوفي، غير أن نضجه الفكري الفلسفي والصوفي سوف يبرز ابتداء من أسره ثم سجنه في فرنسا، لتتجلى أكثر في مرحلة الاستقرار النهائي في دمشق. هذه المرحلة الأخيرة التي تعتبر أطول مرحلة سوف يسخرها كلها للعمل الفكري والمطالعة والتدريس والتأليف على غرار مؤلفه الكبير كتاب المواقف، ولكن ألا يمكن تتبع المسار المعيشي للأمير من طفولته إلى مقاومته للاستعمار الفرنسي إلى أسره وسجنه في باريس وبطبيعة الحال مرحلة استقراره بدمشق بغية التعرف على نظريته المعرفية والخصائص النظرية والعملية في تصوفه؟ بتعبير آخر: ما هي الخصائص الفلسفية والمعرفية للأمير باعتباره زمانيا عاش في القرن التاسع عشر الميلادي؟ وهل نتلمس آثارا للفكر الغربي والحداثة التي عرفها القرن خاصة في محاوراته للفرنسيين وباقي الأوروبيين؟ وما هي عناصر التجديد عنده مقارنة بالفكر الإسلامي التقليدي؟

لا شك أن الآثار السلوكية للتصوف بإمكان أي دارس حاذق أن ينتبه إليها وذلك بدراسة جميع مراحل حياة الأمير، ألم ينشأ في بيئة دينية؟! ألم يكن أبوه مرابطيا بل صوفيا قادريا؟! (نسبة إلى الطريقة القادرية). غير أن مرحلة النضوج في المجال الصوفي سوف تبرز أكثر في مرحلة منفاه وسجنه في فرنسا، ثم تنموونتطور عندما يستقر في الشام بدمشق. ففي هذه المرحلة سوف تتعمق معارفه في الدراسات الصوفية، ويتفرّغ للتدريس والتأليف، وكتابه المواقف يظل شاهدا على عمق التصوف والإنتاج الفكري والفلسفي على غرار شيخه محيي الدين بن عربي.

ولما كانت المدة التي قضّاها في دمشق هي أطول مدة وأكثر استقرارا فلا شك أنه ترك آثارا وترك تلامذة ومريدين،—وعلى غرار ابن عربي الذي هاجر من الأندلس إلى الشام واستقر بها إلى أن مات هناك- فإن الأمير القادم من المغرب الأوسط (الجزائر) إلى المشرق (دمشق) سوف يستقر هناك إلى أن يتوفى .

للتعرف على نظريته المعرفية والعناصر التجديدية - إن وجدت – لا بد من العودة إلى مصادر تكوينه، شيوخه أوالمدارس التي أخذ منها، وأسلوبه في التدريس والكتابة، مؤلفاته ثم الجانب الأهم تصوفه وأدبيات هذا التصوف ومميزاته وتأثيره وتأثره في المرحلة الدمشقية أوالمشرقية.

أولا : مصادر معرفته وشيوخه

المعلم الأول بالنسبة للأمير أبوه الشيخ محيي الدين الذي لازمه وعلّمه الطريقة القادرية وهولا يزال صبيا، كما أنه لازمه في طفولته ورافقه في رحلته المشرقية وفي حجه إلى مكة ثم زيارة العراق ومصر وبعض البلدان العربية حيث كانت هذه الرحلة بمثابة التكوين الأولي للأمير وهوتكوين ديني تقليدي.

ومن العلوم التي درسها وهوشاب، الفلسفة من خلال (رسائل إخوان الصفا، أرسطوطاليس، فيتاغورس) والفقه والحديث (صحيح البخاري ومسلم) درسهما ودرّسهما فيما بعد، والسنوسية والتوحيد، وفي المنطق (إيساغوجي) والإتقان في علوم القرآن وبهذا اكتمل –كما يقول محقق المواقف- العلم الشرعي والعلم العقلي.(عبدالقادر،أ.2004 :09)

ثم يعتبر رسول الله (ص) معلّمه الثاني "**من البحر المحيط ثم النبوة أرتشف** " (عبدالقادر،أ.2004 : 298) والهجرة إلى الرسول –حسب الأمير- قبل الفتح (فتح مكة) واجبة، وهي اليوم واجبة وباقية لورثة أحواله وأسراره." وهذا سوف يبرز في خلوته من بعد في مكة حيث يحدث له الكشف العظيم، وهنا يصرّح بأن من بين شيوخه وأساتذته الرسول الكريم (ص) وهذا ربما من خصوصيات المتصوفة الذين يعتقدون أنهم زيادة عن العمل بالأحاديث النبوية فإنهم يتلقون معارفهم مباشرة من الرسول على غرار ما نجده عند ابن عربي في فصوص الحكم (ابن عربي،م.2003 :33).

ومن شيوخه أيضا "محمد الفاسي" الذي اختلى به في مكة وأخذ عنه، والشيخ خالد النقشبندي في الشام، القسنطيني الشاذلي وأخيرا ابن عربي الذي أثر فيه أيما تأثير، يسميه الأمير صاحب الوراثة المحمدية (عبدالقادر،أ.2004: 298) وسوف نشير إلى أن الأمير يعتبر أول من حقق الفتوحات المكية ونشرها بعد قرون من وفاة صاحبها ابن عربي وحاول التحقق منها عن طريق مطابقتها مع النسخة الأصلية التي كانت في تركيا آنذاك. وقبل الحديث عن علومه المختلفة نتوقف مع أسلوبه في التدريس والكتابة، علما بأن انشغالاته في مرحلة الكفاح والمقاومة منعته من التأليف بغزارة.

ثانيا: أسلوبه في التدريس والكتابة

تظهر أهمية الكتابة من خلال إشارة صريحة يذكرها في مؤلفه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ".. **الكتابة سبب رئيسي لجمع العلوم وإبداء الحكمة وضبط أخبار الأولين ومقالاتهم** "(عبدالقادر،أ. 1966 :137) فهي ترتبط بالقلم والخط ما يجعله يفرد كتابة خاصة في هذا المجال مجال الكتابة مبينا أهمية الكتابة خاصة إذا علمنا أن كتابه هذا كان موجها إلى جمعية علمية فرنسية آنذاك .

في مؤلفات الأمير وأشعاره تتجلى جوانب من عبقريته وفتوّته، كما تتجلى اكتشافاته لأحوال ومقامات صوفية لم تطرق بعد، يمارسها بنفسه ويرتادها بهمته وإرادته ويعبر عنها

بحاله ومقاله. أما كتاب "المواقف" فهوثمرة ثمانية وعشرون سنة من التأليف وزبدة فلسفته وتصوفه، فهوسيرة ذاتية واعترافات سجلها للتأريخ لأفكاره وأحواله ومقاماته.

كما يسجل الأمير في المواقف، أن **"ليس كل علم يصلح لكل الناس ولا كل الناس يصلح لكل علم"** (عبدالقادر،أ.2004 : 82) وهذا الرأي يذكرنا بموقف الفلاسفة المسلمين الذين كانوا يميزون بين علوم خاصة وعلوم عامة غير أنه في مجال التصوف يأخذ طابعا أكثر حدة، إذ لدى الشخص نفسه تختلف محتويات العلوم التي يأخذها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام ، وهذا ما يضعنا أمام خاصية إبستيمية تكون فيها الأولوية للذات العارفة قبل الموضوع المعروف.

وسواء في مؤلفه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، أوفي المقراض الحاد فإن منهجيته في الكتابة لا تبتعد كثيرا عن الطريقة التقليدية حيث ينطلق من مقدمة وتبويب وكل باب يجعل له فصولا، ومن حيث الحجج والاستدلالات نجده يستعمل مفاهيم الفلسفة الإسلامية من خلال إبراز أهمية العقل للحكم على الأشياء، فنجده في المقراض يعطي الأولوية للعقل على الحس على غرار الفلاسفة العقلانيين (عبدالقادر،أ.1989 : 18) لكنه من جهة أخرى وعلى غرار المتصوفة نجده من جهة أخرى يؤكّد أن العقل معرّض للزلل إذا لم يستمد قوته من الروح هذه الروح التي هي –حسب الأمير- من روح اللّه. (عبد القادر، أ.1989: 20).

كما نجد خاصية أخرى ترتبط بالمنهج الصوفي ويتعلق الأمر بتفاوت الناس من حيث العقول، فالعقول البشرية ليست واحدة بل متفاوتة وهي درجات ،وسبب التفاوت يعود إلى خلقة اللّه ،وعقول الأنبياء تختلف عن عقول سائر الناس، إذ الكمّل عقلا - أي أصحاب العقول الكاملة- هم الأنبياء.(عبدالقادر،أ.1989 :25). وهذه الميزة لا نجدها فقط عند المتصوفة بل تكاد تشمل كل الفلاسفة المسلمين.

أما التدريس عند الأمير عبد القادر فهوتدريس على الطريقة المغاربية التقليدية (بركات،م.1990 :46) إذ نجد تدريسه " لعلم الحديث" من حيث الكيفية مثلا عبارة عن جلوس الرعيل الأول المتواتر في شكل حلقة، إذ يقوم بذكر الصحابي، اسمه، نسبه وصنعته، تاريخ ولادته ووفاته، ثم يذكر لغة الحديث وعربيته قبل الفيض في الشرح والتحليل والتعليق، لكنه يتميز باستعمال الاستشهاد الأدبي والتاريخي في الشرح ثم المراجعة والتحقيق وتوثيق المراجع والمصادر.

أما النحووالصرف والعروض وغيرها من علوم اللغة، فهذه العلوم لم يعطها اهتماما على غرار ما كان موجودا لدى شيوخ بجاية في القرن السابع الهجري(بركات،م.1990: 47)فهي علوم وسائل لا يتغافل عنها المتعلمون لكنها مجرد وسائل لا تدرّس لذاتها. نجد "الغزالي" في إحياء علوم الدين،هوالآخر لا يعطي أهمية لهذه العلوم، ولا يخفى هنا تأثر الأمير عبد القادر بالغزالي في ثقافته واتجاهه الفكري.

كما أن الأمير يذهب مذهب البيانيين في تعامله مع القرآن من حيث كونه يمنع كل ترادف أوتكرار وفي الوقت نفسه يهدف للوصول إلى أوجه جديدة للإعجاز القرآني حيث يقول بضرورة التجديد في فهم آيات القرآن، ويعتبر قابلية الآيات القرآنية للتجدد المستمر وجه من وجوه الإعجاز.(بركات،م.1990 :52).

بالنسبة لموقفه من القضاء والقدر يلتقي مع المتصوفة في الاعتقاد بهذا المبدأ ،فالمتصوفة يؤمنون بالعلاقة الضرورية بين السبب والمسبب والمقدمات والنتيجة، إلا أنهم يرون أن اللّه تعالى –على الحقيقة- هوالفاعل والسبب الأقصى (عبد القادر،أ.2004:الموقف 165)، وهكذا فإن تاريخه ومحاوراته سواء بعد خروجه من السجن أوفي زيارته لفرنسا بعد عشر سنوات كل هذا يدل على كيفية تمييزه بين الأخذ بالأسباب والمسببات والقضاء والقدر.

ما يميز الأمير في فكره أوبالأحرى في تصوفه هوالمزج بين المعيش والمفهوم، فمواقفه النظرية التي ستكتشف فيما بعد في مؤلّفاته الصوفية كلها عبارة عن سلوكات عاشها هونفسه وأشواط روحية ومجاهدات مرّ بها في مساره كله.ومع ذلك استطاع أن يترك العديد من المؤلفات العلمية والفكرية والأدبية ،ونذكر منها:

1. **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد**: رسالة للرد على أحد القساوسة الذين اتهموا الدين الإسلامي زورا بأنه يبيح الغدر والخداع، ألفه في سجن أمبواز.(السجن الذي سجن فيه بفرنسا من 1848 إلى 1852 بعد أسره).
2. **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**: يبين فيه فلسفته وموقفه من العلوم وهوعبارة عن مقدمة وثلاث أبواب. يشمل الفلسفة والتاريخ ومختلف العلوم والإصلاح الديني والاجتماعي والاقتصادي، ألفه في بروسة (بتركيا) بعد انضمامه إلى المجمع العلمي الفرنسي. وهنا يدخل الأمير في عمق العصر أوما يسمى اليوم بحوار الحضارات والأديان على الأقل من خلال المؤلفين (المقراض وذكرى العاقل) ما يدل على اطلاعه على الديانات السماوية الأخرى إلى جانب الاعتراف بالنقص المعرفي على مستوى الواقع، فاحتكاك الأمير بالغرب المسيحي لم يتم سوى على مستوى الاستعمار الفرنسي وما مثله من أزمة معرفية وحضارية كل هذا جعل الأمير يتمثل المسيحيين الغربيين كمتوحشين، غير أن اقترابه من الكنائس ورجالتها في فترة وجوده بفرنسا جعلته يكتشف حقائق جديدة كان يجهلها وهذا باعترافه من خلال التصريح » إن هذه الكنائس ستجعلني أعدل عن رأيي « (عبد القادر،أ.1989 :43) غير أننا لم نعثر في مؤلفاته على ما يدل على اطلاعه من الناحية الفكرية على ما أنتجته الفلسفة الغربية في تلك الفترة، فكل استدلالاته كانت انطلاقا من الفلسفة الإسلامية واليونانية ما عدا حديثه عن الاختراعات التقنية التي لاحظها مباشرة أثناء سفره كذكره للقطار والباخرة ووصف ما شاهده في رحلاته وحديثه عن الصورة الشمسية وما سماه في المواقف الآلة الشمسية المسماة الفوتوغراف التي حدثت في زماننا «وما شابه ذلك من مفردات ومصطلحات ذات طابع تقني مرتبطة بالفترة أي

القرن التاسع عشر (عبد القادر،أ. 2004 :465). وكادت اهتماماته أن تقتصر على التدريس والتربية الروحية أكثر من اهتماماته بالتأليف، إلى أن تفرغ لمؤلفه الشهير «المواقف".

3. **كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد:** عبارة عن ثلاثة مجلدات خاصة بالتصوف على غرار الفتوحات المكية لابن عربي، حقق في سنوات 1960، فيه تفسير لآيات قرآنية وشرح لأحاديث نبوية وتبسيط العقيدة الإسلامية وفي هذا المؤلف تظهر مكانة الأمير عبد القادر في العالم الإسلامي عموما وفي المشرق خصوصا. وأصل هذا الكتاب عبارة عن دروس ومحاضرات ومواعظ كان يقدمها عموما في المسجد الأموي بدمشق وفي مختلف دروسه للتلاميذ والمريدين آنذاك. ويرى بعض الدارسين ومنهم (جواد مرابط في كتابه - التصوف والأمير عبد القادر-) أن الكتاب جاء بإلحاح من بعض العلماء الذين كانوا يترددون عليه آنذاك ومنهم الشيخ عبد الرزاق البيطار(بركات،م.1990 :89).

ويتميز كتاب المواقف بتعدد الزمان إذ لم يكتب في فترة زمانية واحدة، أخذ كل الفترة الأخيرة من حياته أثناء وجوده في الشام، وتعدد الأماكن إذ يرتبط بالإلهامات والكشوفات الصوفية التي كانت تأتيه أحيانا في مكة وطورا في المدينة المنورة وأخرى في الشام حسب الواردات –كما يسميها الأمير- وهنا تتجلى عناصر الرحلة والسفر كمصادر للمعرفة وكمتغيرات فلسفية تعكس التقلبات التي تظهر مرة أخرى على المستوى الإبستمي المعرفي للتصوف، فبقدر ما تؤثر التنقلات الجغرافية والزمانية على المستوى الفلسفي بقدر ما تعكس أيضا مفهوم الحال عند الصوفية، فالصوفية هم أهل الحال والأمير عبد القادر نفسه يقر ويؤكد هذا(عبد القادر،أ.2004 : 10) فهم يترقون ويتقلبون من حال إلى حال.وهنا تتجلى من حيث المنهج جدلية الذات والموضوع ، فالموضوع لا يكشف عن نفسه إلا من خلال الذات وهذه ميزة إبستيمية لدى الأمير ولدى المتصوفة.

ويعتبر هذا الكتاب من أجلّ مناقبه وأعظم كراماته، كما أنه من الناحية اللغوية والتركيبية ومن حيث طبيعة الخطاب يكاد لا يفصح لنا عن الفترة الزمانية الحقيقة التي يعبر عنها ، ما يسميه الفلاسفة بارتباط الأبدي بالزمني، وهي مواقفه التي جمع فيها وارداته الإلهية وعبر عنها بالمواقف (يوسف، ن.دت :100).ومن هنا اعترف له بالولاية وتجلت قيمته الصوفية الفلسفية.

ومن آثاره الشعرية :

1- نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر: فيه الأشعار التي كتبها في صباه ، والتي ذكرها ابنه محمد بن الأمير عبد القادر.

2- الديوان: جمعت فيه أشعاره وهويعطي صورة واضحة عن قيمته الأدبية وقوته الشعرية ومقدرته الفنية في الفخر والحماسة والمدح والغزل والتصوف.

3- القصائد الواردة في مقدمة كتاب المواقف : منها تسع عشرة قصيدة نجدها في مقدمة كتاب المواقف تنتمي كلها إلى فن التصوف.

أما الرسائل، فهي متعددة من حيث الشكل ومن حيث المواضيع، ويؤكد الدارسون على أن البعض منها غير معروف، حيث كانت له رسائل في فترة مقاومة الاستعمار الفرنسي للشيوخ والعلماء في الجزائر والمغرب الأقصى والعالم العربي والإسلامي ولها ميزة أدبية وفكرية خاصة. ورسائل أخرى كتبها في فترة الأسر والسجن في فرنسا للمسؤولين الفرنسيين وبعض الرجالات من علماء وأدباء ورجال الدين الأوربيين، هذه الأخيرة زيادة عن الطابع الأدبي الخاص فيها قدرة على الحوار الحضاري والعقائدي والحنكة الدبلوماسية .(يوسف، ن. دت :100).

ومن الرسائل التي كتبها بعد إطلاق سراحه واستقراره بدمشق، رسائله إلى الزعيم اللبناني –يوسف بك كرم- الذي ارتبط بالحركة الاستقلالية عام 1294 هجرية وهي الحركة التي كانت تطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية، ومما يدل على مكانة الأمير لدى وجهاء وعلماء الشام والمشرق عموما أنهم طلبوا منه وبإلحاح أن يترأس وحدة عربية تضم الشام كله مستقلة عن العثمانيين غير أنه رفض ذلك.

ثالثا: الأمير والتصوف.

أ- تعريفه للتصوف:

يعرّف الأمير التصوف بأنه" **جهاد النفس في سبيل الله أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر غير سبيل الله"** (عبد القادر،أ.2004 :130). ولما كان التعريف يتفق مع الحال، ولما كان الأمير يصرح في هذا الموقف (الموقف 71) أن فهمه جاء عن طريق الواردات أي من عند الله، فإننا نستنتج أن تعريفه هذا يرتبط بجهاده هوفي المرحلة الأولى ضد الاستعمار الفرنسي وجهاد النفس الذي يعتبر الجهاد الأكبر عند الصوفية.

ما يميز الأمير في تصوّفه أنه مع تقديره واعترافه بضرورة الشيخ في الطريق الصوفي إلا أنه في الوقت نفسه يحذر من أي تقليد سواء تقليد الرجال أوتقليد الكتب، ولا يرضى إلا باجتياز التجربة الروحية والمجاهدة، نجده في تقديم كتاب المواقف يقول بأنه يدرك عن الحق بفهمه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بالتفهم الرباني. وهوفي كلامه في هذا المجال يخاطب الخاصة غير المقلّدين **"إذا كنت مقلّدا فإن كلامي ليس معك** " (عبد القادر،أ.2004 :82) وهورغم تأثّره بالشيخ الأكبر ابن عربي فإنه يعتبر شارحا له وبالتالي هومن دعاة الفهم الجديد للدين التليد (عبد القادر،أ.2004 :43) كما كان يقول دائما. وسوف نرى أنه حتى في الأحوال والمقامات لا يتجه اتجاها نظريا كما هوالشأن في الأدبيات الصوفية بل مقاماته منطلقة من تجربته الذاتية. ما يلاحظ هنا أنه حتى لونظر إلى الأمير كعالم دين فإنه يصنف مع المجتهدين الرافضين رفضا كليا للتقليد وهذا ما يبرز الخصائص الفلسفية في فكر الأمير عبد القادر على الأقل على مستوى المنهج.

ب- مراحل تصوفه:

تكاد الدراسات تجمع أنه نشأ وفيه إرهاصات للتصوف حيث كانت أسرته متدينة وتنتمي إلى طريقة، ما جعله يكتشف عالم التصوف ويجتهد في مطالعة كتب القوم على حد تعبيره، وبالتالي يمكن القول إن تصوفه مر بعدة مراحل:

1 ـ **مرحلة التلقي والقراءة والاطلاع**: وهي مرحلة الطفولة والشباب حيث كان مرافقا لوالده الشيخ محيي الدين وأثناء رحلته للحج زار العراق والشام وتعرف على الطرق الصوفية خاصة القادرية والنقشبندية.

2 ـ **مرحلة الفتوة والمرابطة**: وهي عمليا ترتبط بمقاومته وجهاده ضد الاستعمار الفرنسي ومحاربة الظلم، هذه الفتوة لا حظها الأوربيون الذين كتبوا عن الأمير ويسمونها الفروسية، وعرف في الكتابات الفرنسية بالفارس Le chevalier.

3 ـ **مرحلة الخلوة والتأمل والتعبد:** وهي المرحلة التي قضّاها أسيرا ثم سجينا في فرنسا بعد توقف الكفاح المسلح، وفي هذه المرحلة تظهر قوة المتصوف في تحويل المحنة إلى منحة، والصبر والشوق إلى الفرج والتخلص من الأسر، فقد رأى أن الابتلاء امتحان قابل لأن يكون منّة إلهية إذا استغل بصبر جميل. ويشير في كتابه إلى هذه الخلوة : "**د خلت مرة خلوة، فعندما دخلتها انكسرت نفسي وضاقت علي الأرجاء وفقدت قلبي، وإذا المعرفة نكرة والأنس وحشة والمطايبة مشاغبة والمسامرة مناكرة، فكان نهاري ليلا وليلي ويحا وويلا وأي قرابة أردتها أبعدت بها، فلم يبق معي من أنواع الصلات إلا الصلاة، فكان هذا الابتلاء".** (عبد القادر،أ.2004 :378) وهكذا كانت هذه الخلوة فرصة للتأمل والتفكير الهادئ العميق، فكان يقضي أوقاته في الذكر والصلاة والدعاء وكانت ترد عليه "**الواردات في الوقائع مشيرة وآمرة بالصبر** " (عبد القادر،أ.2004 :379) وهذا مهم جدا من الناحية الإيبستمولوجية فهويمثل قطيعة مع كل ما من شأنه أن يفسد التفكير والتأمل السليمين.

وتعتبر هذه المرحلة بالنسبة للأمير أهم مرحلة وأهم تجربة يقطعها في مشواره الصوفي والحياتي حيث هي إعداد واستعداد للمرحلة الكبرى التي سيصل فيها إلى ذروة التصوف والعرفان، كما أن هذه المرحلة عرفت إنتاجا فكريا غزيرا واكتشافات ومحاورات الآخر المتمثل في الفرنسيين والأوربيين المسيحيين بمختلف فئاتهم، وفي هذه المرحلة يلتقي بالشيخ محمد الشاذلي القسنطيني شيخ الشاذلية الذي كان يؤنسه ويحقق معه مساجلات شعرية وصوفية .

4 ـ **مرحلة النضج الصوفي**: وهي المرحلة التي يفك فيه أسره ويحقق مبتغاه وهوالاستقرار بدمشق، وتعتبر أطول مرحلة في مشواره الصوفي حيث دامت قرابة الثلاثين سنة، تعمق فيها في علوم القوم (الصوفية) وتعرّف على دقائق الحقائق، وجال وصال واختلى واعتزل، حيث كانت خلوته لمدة عامين بين مكة والمدينة المنورة أين جاءه الكشف المبين ،والتقى بالشيوخ الكبار في التصوف ومنهم الشيخ الفاسي الشاذلي الذي اختلى به في مكة، ومن جهة أخرى كانت له لقاءات ومناظرات مع مختلف الشخصيات السياسية والعلمية والعسكرية خاصة الأوربية،

واقترب من التقنيات الحديثة وتعرّف عليها عن قرب، وحضر الكثير من الأحداث المهمة كتدشين قناة السويس بمصر.... وعن خلوته بمكة يقول ابنه محمد بن الأمير عبد القادر في- تحفة الزائر- "وما تم له الارتقاء إلا في غار حراء... ووقع له الفتح الربّاني وانفتح له باب الواردات واستظهر من القرآن آيات ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحة." (محمد ، أ. 1964 :295).

كما يذكر الأمير نفسه في المواقف (عبد القادر،أ2004 :43) هذا الفتح الربّاني:"**إن الله قد عوّدني أنه مهما أراد أن يأمرني أوينهاني أويبشرني أويحذرني أويعلمني علما أويفتيني في أمر استفتيته فيه، إلا ويأخذني مني مع بقاء الرسم ثم يلقي إلي ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن ثم يردّني إلي فأرجع بالآية قرير العين.**"

ج- مراحل الطريق الصوفي :

الطريق الصوفي عند الأمير كما عند الصوفية طريق روحي قلبي لا طريق فلسفي عقلي، عبارة عن رياضة النفس والمجاهدة والتصفية والتخلي عن الرذائل والتجلي بالفضائل للوصول إلى حال الجذب أوالإشراق وهي حال معرفة الله عن طريق الذوق والمكاشفة. وبوصول الصوفي إلى غايته يكون دائم الحضور مع الله ودائم الشهود لله فهويدرك الله في كل شيء. كما أن بإمكان كل إنسان أن يصل إلى هذه المرتبة من السموالروحي إذا استطاع أن يسلك طريقها .

والسلوك مصطلح صوفي ويسمى صاحبه "السالك" والرحلة المقطوعة تسمى "الطريق" وهي مراحل متفاوتة مركبة من مقامات وأحوال. ومن هنا تتبين الحاجة إلى الشيخ –خاصة في بداية الطريق- لتفادي الأوهام والحيرة وليأخذ بيده حتى يصل إلى الإدراك العرفاني الصحيح. وهذا كله يحتاج إلى مجاهدة أي رياضة روحية ظاهرية وباطنية، هذا كله معروف في الأدبيات الصوفية الكلاسيكية والمحدثة، غير أن الأمير له مصطلحاته الخاصة المرتبطة كما قلنا من قبل بتجربته الذاتية.

ومن المصطلحات التي تدل على التجديد المعرفي عند الأمير من حيث المصطلحات ومن حيث المنهج الربط بين المفهوم والمعيش على غرار الفلاسفة المعاصرين خاصة الظواهريين والوجوديين، فالمجاهدة كمصطلح صوفي عام نجدها عند الأمير تسمى" **الهدي**" ، والهدي أنواع والموصوفون به أنواع ومراتب ،**المهتدي والأهدى والأعظم هدى.** (عبدا لقادر ،أ.2004 :219).

1. **المهتدي**: هوالموصوف بالهدي بالدليل العقلي والبرهان.

2. **الأهدى**: الذي حصل على الهداية بالإيمان وتصديق الرسول وهم أهل التقوى والاستقامة.

3. **الأعظم هدى:** الذي حصلت له الهداية بالكشف والعيان وهم أهل الكشف والاطلاع (الصوفية)**.** ويعتبر الأمير نفسه من الصنف الثالث إذ يقول:" **ومن بعض نعم الله**

علي أنني منذ رحمني الله بمعرفة نفسي، ما كان الخطاب لي والإلقاء علي إلا بالقرآن الكريم العظيم ".)(عبد القادر،أ.2004 :144**).**

الأحوال والمقامات:

الأحوال هي ما يرد على قلب السالك دون كسب فيه وهودائم التحول، أما المقام فيكتسب بالجهد والرياضة ويسمى مقاما إذا ثبت وأقام (الغزالي،م.د ت:139**)**، والحال لا علاقة له بالبرهان بمعناه الفلسفي، فهويتمثل في الجانب الوجداني القلبي العملي ويقينه يقين قلبي.

بالنسبة للأمير، ودائما في جانبه العملي في وضع المصطلحات، فهويسميها طريق الحق ويبدأ **بالهجرة** التي هي الأساس الأول ويعني بها هجرة المخالفات وتبديل الصفات البهيمية بصفات إلهية. وهنا نلاحظ المزاوجة بين الهجرة بمعناها الحسي الجسدي والهجرة بمعناها المزاجي أي الصوفي الروحي.

ففارق وجود النفس تظفر بالمنا وزايل ضلال العقل إذ أنه الحبس

(عبدالقادر،أ.2004 :31).

يتحدث الأمير عن المقامات والأحوال التي عاشها وخبرها وعانى من تجربته معها ، وكل موقف وكل حدث من سيرته الذاتية يعتبر سلوكا على طريق الوصول إلى الحق (مقاومته للمستعمر وما تحتوي من مرابطة وفتوة وصبر، معاملته للأسرى وحربه الشريفة، الصبر والتوكل أثناء الأسر، حمايته للمسيحيين في أحداث 1860 والأثر الذي تركته فيما بعد –في هذه المناسبة يقول "**إنه سلوك إسلامي –إسلام من هوأعظم هدى- وحقوق الإنسانية**- ". كما أنه يعتبر مقام التوبة الأساس لسلوك الطريق والمفتاح للوصول لمقام التحقيق فمن أعطيه أعطي الوصول ومن حرمه حرم الوصول.(عبدا لقادر،أ. 2004 :348).

وعلى ضوء فهمه للتوبة التي هي التقوى والوسيلة التي هي الشيخ الكامل كما جاء في الآية القرآنية" **يأيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون**"(المائدة:الآية35) نستطيع أن نفهم أنواع الجهاد الذي اطلع به الأمير، سواء الكفاح المسلح أوالجهاد بالقلم والتعليم والسموالروحي، كما نستطيع أن نؤكد - على من يتهم التصوف بترك الأسباب والجمود- أن التصوف- على الأقل مع الأمير- ليس تواكلا وتكاسلا بل فتوة ومرابطة وجهاد في سبيل الله حتى نهاية البشرية. ومن مقام التوكل والإخلاص فيه تبدأ ترد على قلب السالك التجليات الروحية ويترقى في المعارج عن طريق الأحوال .

والأحوال عند الأمير تتلخص في حال القرب، والقرب من الله تعالى قرب معنوي، فالعلم بالله تعالى يقربنا منه –كما يقول الأمير –والجهل يبعدنا عنه(عبد القادر،أ.2004: 159) والقرب قربان وهومستمد من الحديث القدسي المشهور – "ما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل...."

1. قرب النوافل : أن يشهد نفسه حال العبادة وفي غيرها من سائر الأفعال والإدراكات أنه بالله، أي أن يشهد الحق تعالى، قدرته وسمعه وبصره وجميع قواه وأعضاءه الظاهرة والباطنة فلا يرى فعلا له ولا لغيره ولا إدراكا إلا بالله، ويسمى هذا قرب النوافل وهوثابت ذوقا ووجدانا.

2. قرب الفرائض: مستوى من القرب أعلى من سابقه، فيه يشهد العبد نفسه وقواه الباطنة وأعضاءه الظاهرة آلة الحق، والحق تعالى المصرّف لها، المؤثر بها، فيسمع بسمع العبد ويبصر بصره ويتكلم بلسانه إلى آخر الإدراكات. والأول قريب أي صاحب قرب النوافل، أما الثاني صاحب قرب الفرائض فهوأقرب.

هذا جانب من تصوف الأمير ونظراته العملية بالدرجة الأولى ومختلف مواقفه، أما منهجه فيوضحه نظريا في المواقف" **وأن القوم- رضي الله عنهم- ما أبطلوا الظواهر، ولا قالوا ليس المراد من الآية إلا فهمنا، بل أقرّوا الظواهر على ما يعطيه ظاهرها وقالوا فهمنا شيئا زائدا على ما يعطيه ظاهرها... ولهذا ترى كلما جاء أحد ممّن فتح الله بصيرته ونوّر سريرته، يستخرج من الآية والحديث معنى ما اهتدى إليه من قبله وهذا إلى قيام الساعة** " (عبد القادر، أ.2004 :44).

فمنهج الأمير من خلال المواقف يمكن تلخيصه كالآتي :

عرض التفسير الظاهري للنص أوالآية القرآنية.

عرض الآراء الصوفية السابقة له كابن عربي وغيره.

وفي النهاية عرض موقفه الشخصي ورؤيته للمعنى.

وهوفي كل هذا يؤكد على التجديد المستمر في الفهم ما يبين عن خاصية إبستيمية تميز اليوم العلوم المعاصرة وهي أن النتائج العلمية نسبية ويصحح بعضها بعضا.

بعد إطلاق سراحه جاءت كل أفعاله لتدل على خصوصية فكره وتصوفه الذي كان عمليا يجمع بين التأمل النظري أوالتعبد والعمل التطبيقي، كانت له محطة في تركيا سنة1853، وما ميز الأمير في تلك الفترة اهتمامه بأحوال المسلمين في مختلف مناطق العالم وبقي في بروسة حوالي ثلاث سنوات حيث درّس بجامع العرب هناك لينتقل منها سنة 1855 م ويحل نهائيا بدمشق، كما أن سكان دمشق استقبلوه استقبالا رائعا، فهوفي نظرهم حامل راية العروبة والإسلام.

إذا أضفنا بعض الأحداث خاصة مجازر 1860 التي راح ضحيتها الآلاف من المسيحيين ورد الفعل الفوري للأمير وحمايته لهم، وانعكاس كل ذلك على مكانة الأمير محليا وعالميا،فإن كل هذا يعطينا صورة عن ميزة هذه الشخصية الصوفية التي كانت تتجسد أفكارها في الواقع، إلى جانب القدرة على تغليب الجانب الديني والإنساني على غيره عمليا في فترة عصيبة، وهذه من شيم الفلاسفة والشخصيات العظيمة التي لا تتحرك وفقا لردود

الأفعال وللنزوات ، فالفكر الفلسفي الحقيقي فعل وليس رد فعل سواء كان نظريا في شكل مؤلّف أوموقف سلوكي،وهذا في اعتقادنا ما يميز المتصوفة والفلاسفة الكبار.

وجاء في تحقيق كتاب المواقف: " لقد فرح بنا أهل البلد، وخرجوا كلهم للقيانا الرجال والنساء " وفي موقع آخر يقول:" لقد استقبلني الدمشقيون أحسن استقبال وعدّوا يوم دخولي مدينتهم كيوم عيد، فالرجال والنساء قد تسابقوا أمامي "(الراسي،ج.1997 :60)

ولدى استقراره بدمشق أول ما فعله هوزيارة ضريح ابن عربي والتبرك به، ومن هنا سيصبح معلّمه الروحي وهوالذي سبقه بستة قرون. وبعد سنتين زار بيت المقدس حيث مدحه شاعرها آنذاك –حسن الدجاني، في قصيدة نذكر منها بيتين للدلالة على مكانة أهل المنطقة المغاربية في نفوس المشارقة من الناحية الصوفية العرفانية:

عهدنا بغرب مطلع البدر مشرقا وإنّا نراه الآن قد لاح مشرقـــا

وللغرب أصل الفضل إذ هومطلع وإن يك بدر التم في الشرق أشرقا

بعد ذلك عاد إلى دمشق حيث قام بالتدريس على طريقته الخاصة، فقرأ صحيح البخاري وكتابي الإتقان والإبريز في مدرسة دار الحديث الأشرفية، ثم اعتكف في مسجد الحسين بن علي حيث قرأ كتاب –الشفا- والصحيحين.(الراسي،ج.1997 :63).إن ذكر هذه الأحداث للأمير الغرض منها هوالتأكيد على معايشته ومشاركته لما عرفته الساحة الفكرية والأدبية في عصره.

ما يدل على مكانة الأمير في سوريا عموما وليس فقط على المستوى الصوفي، خاصة بالنسبة للمسلمين، هوالأحداث والمجازر الطائفية التي راح ضحيتها آلاف المسيحيين، حيث تدخل أولا لحماية القناصل الأجانب وأدخلهم إلى بيته، قبل أن يتدخل بالجيش، ولا أحد يجرؤ على مس حرمة داره لأنه أحد الشرفاء، إذ يرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب (الراسي،ج.1997 :63) ثم بعد ذلك خرج بمجموعة من الفرسان الذين كانوا معه وتمكن من إنقاذ الآلاف من المسيحيين إلى جانب الذين آواهم في بيته من ضمنهم أعضاء الإرساليات الأجنبية ورجال دين ورهبان، كما أنه وضع مكافأة مالية لكل سوري يأتيه بمسيحي لحمايته. وهنا ردّ على مكافئيه من الأوربيين **": إن ما فعلته تقتضيه الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسانية** '(شرارة،ع،1974: 148).

بعد هذه الأحداث خاطب الأمير علماء ووجهاء دمشق قائلا: "**إن الأديان، وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجلّ وأقدس من أن تكون خنجر جهالة، أومعول طيش، أوصرخات نذالة تدوّي بها أفواه الحثالة من القوم. أحذّركم من أن تجعلوا لشيطان الجهل نصيبا، أويكون له على نفوسكم سبيلا** "(محمد، أ.1964)

وهنا عرضت عليه مملكة الشرق إذ أجمع المؤتمرون الذين رفعوا مطلب الاستقلال عن الدولة العثمانية على أن يكون الأمير عبد القادر أميرا على الشام كلها ويشكل لهم طريق الاستقلال والتحرر، فهوموضوع إجماع العرب والمسلمين، لكنه رفض الفكرة وطالب بأن

تبقى السلطة الروحية الدينية مع الخلافة العثمانية ويختارون منهم أميرا من أهل البلاد يحكم إدارة شؤونها . وكان الأمير قد انتبه مبكرا إلى القضية الفلسطينية وأعطى أهمية كبرى لعملية شراء اليهود للأراضي الفلسطينية آنذاك وكان يتحسّس خطر هذه المسألة، وناقش الوضع مع العديد من وجهاء الجنوب اللبناني آنذاك (شرارة، ع.1974 :148).هذا إلى جانب اهتمامه بقضية القوقاز التي كانت مستعمرة روسية والتبادل في الرسائل مع الإمام شامل بطل المسلمين في تلك الفترة كان ينصب في هذا المجال.

وفي الختام، يمكن القول كإجابة عن السؤال المطروح سابقا إن الأمير كصوفي متفلسف جدّد على المستوى النظري من خلال استعماله مفاهيم صوفية خاصة ومن خلال قراءته المميزة للنصوص الدينية والصوفية التراثية ولكن التجديد الحقيقي يظهر في جانبه العملي إذ لم ينعزل ولم يكتف بالتفرغ للتعبد على مستوى كل مساره الصوفي، بل ساهم في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية من خلال اهتمامه بأحوال الناس في كل مكان. أمّا عن الأثر الصوفي الذي تركه الأمير في بلاد المشرق عموما وسوريا خصوصا، فلقد بين أن الشريعة والحقيقة لا ينفصلان "**وكل من ادّعى أنه شم رائحة من طريق أهل الله تعالى ولم يزدد للشرع تعظيما وللسنة إتباعا فهومفتر كذاب**" (عبد القادر ،أ.2004 :49)

كما أنه درّس وعلّم ووعظ انطلاقا من مؤلفه –المواقف- الذي رافقته شروح وتحقيقات لمذهب ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية، الذي يعتبر الأمير أول محقق له في العصر الحديث، وكذلك كتاب فصوص الحكم .ما تركه الأمير من مدونات وما اتخذه من مواقف وتعداده للشيوخ والطرق كل هذا يدل على أنه دافع عن خط التصوف على العموم، كل الطرق بدون استثناء، فها هوفي المواقف يذكر الشيخ الأكبر إمام الوارثين،كما يسميه، لكنه يذكر الغزالي والجنيد والشاذلي،فهولم يتعصب لشيخ أولطريقة بعينها، ألم يختل في حجه الأخير بعد 1863 بالشيخ ا محمد الفاسي الذي ذكره في قصيدة بعنوان _أستاذي الصوفي:

أمسعود جاء السعد والخير واليسر ووَلّت جيوش النحس ليس لها ذكر.

وكان الناس يلجئون إليه في حل مشكلاتهم وخصوماتهم، فيصلح بينهم ويرتضون أحكامه، وكان يعطي من ماله إذا تبين له عجز الذي يحكم عليه في الأداء، وكان يهب الشبان مهور الزواج... وكان مسموع الكلام لا يرد له الولاة طلبا... واعتاد الفقراء أن يقصدوه لتجهيز موتاهم، وعيّن مخصّصات للفقراء تعطى لهم أيام الجمعة، فالخبز يوزّع على مئات الأسر في رمضان. (عبد القادر ،أ.2004 :24). وهذه الميزة يشترك فيها الكثير من كبار الصوفية والفلاسفة العاملون ، فتجليات المساهمة الفعلية في الحياة السياسية وخاصة الاجتماعية والاقتراب من الحياة اليومية للناس والاهتمام بمشاكلهم هومن صلب اهتمامات الفلاسفة المعاصرون ، غير أن الأمير مارسها عمليا. كما أحبّه أهل دمشق وعلماؤها وأعيانها، وأجمعوا على تقديمه، حتى قال له كبير شيوخ علماء الشام آنذاك –عبد الرزّاق البيطار:

"نحن أهل دمشق نعدّ أنّ نعم الله علينا عظيمة وكثيرة في هذه البلدة، وقد زادنا جلّت عظمته من فضله أن جعل إقامتك فيها فأفادنا من علومك ومعارفك "(عبد القادر،أ.2004 : 24). ومن هنا تستنتج أن الأمير عبدالقادر وربما عكس المتصوفة السابقون إلى حد بعيد لم يدخل في صراع ظاهر مع الفقهاء بل على العكس استطاع أن يكسبهم .

كما أنّ بيته كان مقرّا للقاء المفكرين والعلماء للتذاكر والمناقشة وتفسير القرآن والأحاديث النبوية حيث برزت طريقته الجديدة والتي ظهرت في كتاب المواقف كما أشرنا سابقا. ودافع الأمير عن الصوفية محذرا من اتهامهم بالحلول والاتحاد، فالمتصوف يرى العالم متحولا لأنه ليس محجوبا بينما المحجوب يراه ثابتا.

المصادر والمراجع:

-الأمير عبدالقادر ،2004، المواقف الروحية والفيّوضات السبوحية ، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالاي ،
بيروت، دار الكتب العلمية .

-الأمير عبدالقادر ،1966 ،ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ، تحقيق ممدوح حقي ،بيروت،لبنان .

-الأمير عبدالقادر،1989 ،المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، الجزائر،دار الطاسيلي للنشر والتوزيع.

- بركات محمد بغداد ،1990 ،الأمير عبدالقادر المجاهد الصوفي، نصر ،الصدر لخدمات الطباعة .

-يوسف إسماعيل النبهاني، ،د ت ، جامع كرامات الأولياء.

-محمد بن الأمير عبدالقادر،1964 ،تحفة الزائر في أخبار الجزائر والأمير عبد القادر،ط2 ،شرح وتعليق ممدوح حقي ، بيروت ،دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر.

-جورج الراسي ،1997 ،الإسلام الجزائري من الأمير عبدالقادر إلى أمراء الجماعات ، ،بيروت ،دار الجديد.

-عبد اللطيف شرارة، 1974، الفكر المغربي لا ينفصل عن الفكر العربي، مجلة البلاغ، عدد 148، بيروت.